4 إسرائيل والائتلاف العربي في سنة 1948

آفي شلايم Avi Shlaim

قال الفيلسوف الفرنسي آرنست رينان «الأمّة هي مجموعة من الناس توحّدهم وجهة نظر مخطئة إلى الماضي وكراهية للجيران». وطوال العصور، استخدمت الأساطير عن الماضي كأداة لها قدرة تكوين أمّة. وليست الحركة الصهيونية فريدة في نشرها صيغة للماضي مبسّطة وملمّعة في سياق بناء أُمّة، ولكنّها لا تقدّم مثالاً ناجحاً إلىٰ حد ملفت للأنظار، من حيث استخدام الأساطير لغاية مزدوجة هي تعزيز الوحدة الداخلية واجتذاب التعاطف الدولي والدعم لدولة إسرائيل.

إن الرواية الصهيونية التقليدية للنزاع العربي ـ الإسرائيلي تضع المسؤولية على عاتق الجانب العربي، وهي تصور إسرائيل أنَّها الضحية البريئة لروح العداء العربي الذي لا هوادة فيه وللعدوان العربي، وفي هذا الصدد، فإن المقولات الصهيونية التقليديَّة عن نشوء إسرائيل تشكِّل نتيجة طبيعية لتاريخ الشعب اليهودي؛ مع التشديد على ضعف اليهود، وموضع مقتلهم وقلّة عددهم قياساً إلىٰ خصومهم. إن المؤرخ اليهودي الأمريكي سالو بارون يتحدَّث عن ذلك واصفاً إيّاه أنَّه وجهة نظر مدرّة للدمع في تاريخ اليهود. وتنحو وجهة النظر هذه إلىٰ عرض التاريخ اليهودي بصفته سلسلة من المحن والاضطرابات يصل إلىٰ ذروته في الهولوكوست.

لقد شكّلت حرب الاستقلال نقيضاً مجيداً لقرون من الضعف والاضطهاد والإذلال. ومع ذلك فإن الرواية الصهيونية التقليدية للأحداث التي أحاطت

بولادة إسرائيل كانت ولا تزال مبنية على فكرة أن اليهود هم الضحايا. فهذه الرواية تعرض حرب 1948 على أنّها كفاح بسيط ثنائي القطب لا محرّمات فيه، بين عدو عربي أحادي النمط وحاقد، وجالية يهودية صغيرة محبّة للسلام. وكثيراً ما كان يجري استحضار الصورة التوراتية لداوود وجوليات في هذه الرواية. أما إسرائيل الصغيرة فيجري تصويرها وكأنّها تحارب وظهرها إلىٰ الحائط ضد عدو عربي ضخم حسن التسليح ومتجبِّر. واعتبر انتصار إسرائيل في هذه الحرب أمراً يقرب من المعجزة، ناتجاً عن تصميم المقاتلين اليهود وبطولتهم أكثر مما هو ناتج عن التفكّك واختلال النظام في الجانب العربي. إن هذه الصورة البطولية لرواية حرب الاستقلال قد برهنت أنّها قادرة على الصمود ومقاومة أي تعديل فيها، والسبب بدقّة هو أنّها تلائم الذاكرة الجماعية لجيل سنة 1948. وهذه الصيغة لرواية الحرب هي أيضاً ما يتعلّمه الأطفال الإسرائيليون في المدرسة. وبالتالي، قليلة هي الأفكار المغروسة في أذهان الجمهور الإسرائيلي كتلك الفكرة التي تلخّصها العبارة العبرية «معاتيم مول رابيم ـ أي القلّة ضد الكثرة».

إحدى الأساطير الأكثر استمرارية والمحيطة بولادة دولة إسرائيل هي أن الدولة المولودة حديثاً في سنة 1948 واجهت ائتلافاً عربياً أحادي النمط ومعادياً بلا هوادة. وكان الاعتقاد بأن هذا الائتلاف يوحده هدف واحد: تدمير الدولة اليهودية الوليدة. . وحيث لا يوجد هناك تعبير مقبول عامة لتصفية دولة ما، فقد اقترح يهوشافاط هاركابي، وهو أحد كبار دارسي النزاع العربي ـ الإسرائيلي، أن تسمى هذه التصفية بالإنكليزية «politicide» أي قتل الـ «politicia»، والمقصود بذلك الكيان السياسي. لقد أكّد هاركابي أن هدف العرب كان قتل الكيان السياسي: ويرتبط بهذا الهدف، وفقاً لأقوال هاركابي، هدف آخر، هو قتل الناس بالجملة ـ «إلقاء اليهود في البحر» على حد التعبير الشعبي[1]. إن

(1) يهوشافاط هاركابي «المواقف العربية من إسرائيل» «Arab Attitudes to Israel» (القدس ـ 1972) ص: 37 ـ 38.

وجهة نظر هاركابي هي مجرد مثال واحد لاعتقاد واسع النطاق بأن اليشوف، أي السكّان اليهود في فلسطين قبل قيام الدولة، كانوا لا يواجهون التهديدات اللفظية فحسب، بل كانوا يواجهون خطر إبادة حقيقية من قِبل الجيوش النظامية للدول العربية المجاورة. أما القصة الحقيقية للحرب العربيّة ـ الإسرائيليّة الأولى التي أراد إظهارها «المؤرخون الجُدد» الذين ظهروا على الساحة في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، فإنّها أكثر تعقيداً[2].

إن الحجّة التي أقدّمها في هذا الفصل هي، باختصار، أن الائتلاف العربي الذي واجهته إسرائيل في السنوات 1947 ـ 1949، كان أبعد ما يكون عن وحدانية النمط، ولم يكن ضمن هذا الائتلاف اتفاق على أهداف الحرب. وكان عجز العرب عن تنسيق تحركاتهم الدبلوماسية والعسكرية مسؤولاً جزئياً عن هزيمتهم، وإن إسرائيل طوال النزاع كانت تتمتع بتفوق عسكري على خصومها، وأخيراً، وهذا هو الأهم، إن قادة إسرائيل كانوا مطلعين على الانقسامات في الائتلاف العربي فاستغلوا هذه الانقسامات استغلالاً كاملاً في شنّ الحرب وفي توسيع حدود الدولة.

الميزان العسكري

أما الميزان العسكري، فقد كان الافتراض دائماً أن العرب يتمتعون بتفوق عددي ضخم. لذلك كانت الصورة التي رُسمت للحرب أنها حرب القلّة ضد الكثرة، وأنّها نضال بطولي عنيد دافعه اليأس، من أجل البقاء، ضد ظروف معاكسة مرعبة شديدة الوطأة. إن شجاعة المقاتلين اليهود وجرأتهم لا شكّ فيها. ولا شك أيضاً في تدني المعدات العسكرية التي كانت بتصرّفهم، على الأقل حتى الهدنة الأولى، عندما جاءتهم أسلحة مهرّبة من تشيكوسلوفاكيا

(2) راجع كتاب آڤي شلايم «النقاش حول 1948» IJMES «The Debate about 1948» 27 (1995) ص: 287 ـ 304.

فقلبت الميزان لمصلحتهم بصورة حاسمة. ولكن عند حلول منتصف شهر أيار (مايو) 1948 كان مجموع الجنود العرب، النظاميين وغير النظاميين، العاملين في مسرح العمليات، دون 25,000 رجلاً، بينما كان عدد جنود الجيش الإسرائيلي في الميدان 35,000. ومع حلول منتصف شهر تموز (يوليو) بلغ عدد الرجال تحت السلاح الذين جنّدهم الجيش الإسرائيلي 65,000 وارتفع هذا الرقم مع حلول شهر كانون الأول (يناير) إلىٰ ذروته، أي 96,441. وعزّزت الدول العربية جيوشها، ولكنّها لم تتمكّن من مجاراة هذا المعدل من الزيادة. وهكذا، فإن الجيش الإسرائيلي تفوّق عدداً، في كل مرحلة من مراحل الحرب، على مجموع القوّات العربية التي انتشرت ضدّه، وهو، بعد جولة القتال الأولى، تفوّق عليها بقوة النار أيضاً. ولذلك لم تكن النتيجة النهائية للحرب معجزة بل انعكاساً صادقاً للميزان العسكري الذي شكّل أساس هذه النتيجة في الساحة الفلسطينيَّة. وفي هذه الحرب، كما في معظم الحروب، كانت الغلبة للجانب الأقوى[3].

إن القوّات العربية، النظامية وغير النظامية، التي جنّدت لخوض المعركة ضد الدولة اليهودية الناشئة، لم تكن في أي مكان بالقوة أَو الوحدة التي بدت بهما في الدعاية العربية والدعاية اليهودية. ففي المرحلة الأولى من النزاع، التي امتدت من تاريخ إقرار الأُمم المتّحدة قرار التقسيم في 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 وحتى إعلان الدولة الإسرائيلية في 14 أيار (مايو) 1948، كان على «اليشوف» أن يدافع عن نفسه ضد هجمات المقاتلين الفلسطينيين غير النظاميين والمتطوعين من العالم العربي. ولكن، بعد إعلان دولة إسرائيل، زجت الدول

(3) وليد خالدي «من الملاذ إلىٰ الفتح: قراءات في الصهيونية ومشكلة فلسطين حتى سنة 1948» (بيروت ـ 1971) ص: 858 ـ 81، سمحا فلاپان «ولادة إسرائيل: الأساطير والحقائق» (لندن ـ 1987) ص: 187 ـ 199، وبني موريس «1948 وما بعد: إسرائيل والفلسطينيون» (أُكسفورد ـ 1994) ص: 13 ـ 16.

العربية المجاورة والعراق جيوشها النظامية في المعركة ضد الدولة اليهودية. ولا ريب في أن الالتحام مع جيوش نظامية كان صدمةً للهاغانا، منظمة «اليشوف» شبه العسكرية، التي كانت في طور التحوّل إلىٰ جيش الدفاع الإسرائيلي. ومع ذلك فإن آلة الدعاية اليهودية بالغت كثيراً في حجم القوات الغازية ونوعها. إن مثالاً نموذجياً لرواية ما جرى في حرب الاستقلال، ذكرها دبلوماسي إسرائيلي بارز، جاءت على النحو التالي:

«خمسة جيوش عربية ووحدات من دولتين أخريين، مجهّزة بدبابات حديثة، ومدفعية وطيران.. غزت إسرائيل من الشمال والشرق والجنوب. إن حرباً كاملة فرضت على «اليشوف» في ظروف هي غاية في الصعوبة»[4].

إن الدول العربية الخمس التي شاركت في غزو فلسطين هي مصر، وشرق الأردن، وسورية، ولبنان، والعراق، أما الوحدتان فكانتا من المملكة العربية السعودية واليمن. بيد أن هذه الدول جميعها لم ترسل إلىٰ فلسطين سوى قوّات لشنّ حملة، محتفظة بمعظم جيوشها في أراضيها. وقوّات الحملة واجهت إعاقة بسبب طول خطوط المواصلات، وغياب معلومات استخبارية موثوقة عن عدوها، وضعف القيادة، وضعف التنسيق، والتخطيط بالغ السوء للحملة التي كان على هذه الجيوش أن تنفّذها. أما القوّات الفلسطينيَّة غير النظامية، التي عُرفت باسم **جيش الجهاد**، فقد كانت بقيادة حسن سلامة وعبد القادر الحسيني. وكان جيش الإنقاذ العربي يتألّف من نحو 4000 متطوع عربي للجهاد في فلسطين، وكان تمويله من جامعة الدول العربية، وتدريبه في قواعد في جنوب سورية، وقائده هو المغامر السوري **فوزي القاوقجي**. كان تركيز القاوقجي على الأمور العسكرية. والسياسيون العرب الذين عيَّنوه ثمَّنوا فيه عدواً معروفاً للمفتي الأكبر الحاج أمين الحسيني وندّاً محتملاً له، أكثر مما

(4) جاكوب تسور «الصهيونية: القصة البطولية لحركة تحرير وطنية» «Zionism: The saga of a National Liberation Movement» (نيويورك ـ 1977) ص: 88 ـ 89.

رأوا فيه قائداً عسكرياً واعداً جداً لقيادة القتال ضد اليهود. ورأى المفتي بالتأكيد في هذا التعيين محاولة من قِبل منافسيه في الجامعة العربية لتقويض تأثيره في مستقبل فلسطين[5].

لقد كان الائتلاف العربي موبوءاً بالخلافات السياسية الداخلية العميقة، فجامعة الدول العربية كانت منذ تأسيسها في سنة 1945 المنتدى الأعلى لصنع السياسة العربية القومية بشأن فلسطين. ولكن الجامعة العربية كانت منقسمة بين كتلة هاشمية مؤلّفة من شرق الأردن والعراق وكتلة معادية للهاشميين بقيادة مصر والمملكة العربية السعودية. وقد لعبت المنافسات الأسرية دوراً كبيراً في تشكيل المقاربات العربية تجاه فلسطين. فالملك عبد الله ملك شرق الأردن كان مدفوعاً بطموح راوده زمناً طويلاً ليجعل من نفسه سيد سوريا الكبرى التي تضم، إضافة إلىٰ شرق الأردن، كلاً من سورية ولبنان وفلسطين. وقد رأى الملك فاروق في طموح عبد الله تهديداً مباشراً لزعامة مصر في العالم العربي. أما حكّام سوريا ولبنان فقد رأوا في الملك عبد الله تهديداً لاستقلال بلديهم إضافة إلىٰ أنّهم كانوا يرتابون في كونه شريكاً للعدو. لقد كانت كل دولة عربية مدفوعة بمصالحها الأسرية الخاصة أو مصالحها المحلية. وكان الحكّام العرب معنيين بإلغاء بعضهم بعضاً بقدر ما كانوا مهتمين بمقاتلة العدو المشترك. وفي هذه الظروف كان من المستحيل عملياً التوصّل إلىٰ توافق حقيقي حول مسائل وأهداف التدخّل العربي في فلسطين. وترتب على ذلك أن «اليشوڤ»، بدلاً من أن يجابه عدواً موحداً واضح الغرض وواضح الخطة في القتال، واجه ائتلافاً مهلهلاً مؤلّفاً من جامعة الدول العربية ودول عربية مستقلّة، وقوّات فلسطينيَّة غير نظاميَّة وتشكيلة من المتطوعين. لقد كان الائتلاف العربي أحد أشد الائتلافات انقساماً، وسوء تنظيم وفوضوية في تاريخ الحروب كلّها.

---

(5) تزڤي إلِيلِغ، «المفتي الأكبر: الحاج أمين الحسيني، مؤسِّس الحركة الوطنية الفلسطينية» (لندن ـ 1993) ص86.

كانت هنالك مصالح وطنية قُطرية ومتناقضة تخفيها ورقة توت، وهذه الورقة هي ضمان فلسطين للفلسطينيين. لقد كانت مشكلة فلسطين أول امتحان هام لجامعة الدول العربية، وفشلت الجامعة في هذا الامتحان فشلاً ذريعاً. إن إجراءات الجامعة كانت تتخذ ظاهرياً لتأييد المطلب الفلسطيني بالاستقلال في كامل فلسطين. ولكن الجامعة ظلّت على نحو غريب غير مستعدّة لأن تسمح للفلسطينيين أن يقرّروا مصيرهم بأنفسهم. ذلك أن عبد الرحمن عزام، الأمين العام لجامعة الدول العربية، كان يرى في المفتي (مناحيم بيغين العرب). وقد قال عزام باشا لصحفي بريطاني ـ وهذا الصحفي نقل الكلام إلىٰ مسؤول يهودي ـ إن سياسة جامعة الدول العربية تهدف «إلىٰ التخلّص من المفتي»[6].

كان المفتي يحاجج في اجتماعات الجامعة العربية ضد تدخّل الجيوش العربية النظاميَّة في فلسطين، ولكن نداءاته قُوبلت بالتجاهل[7]. إن كل ما كان يطلبه المفتي هو المساندة المالية والدعم بالأسلحة، فكانوا يعدونه بتوفيرها ولكن لم يَصِل إليه منها إلاَّ كميات لا يؤبه بها. وهكذا فإن الإدعاء بأن موارد جامعة الدول العربية وضعت بتصرّف الفلسطينيين هو نوع من التضليل. فالجامعة العربية، على عكس ذلك، خذلت الفلسطينيين في ساعة حاجتهم الملحّة. وقد قال يزيد صايغ المؤرِّخ الممتاز للكفاح الفلسطيني المسلَّح، في وصف هذا الأمر، ما يلي: «إن التردد في تقديم موارد كبيرة للصراع والشكوك المتبادلة قد أحدثت خلافات مستمرّة حول الدبلوماسية والاستراتيجية، الأمر الذي أدَّى إلىٰ مناورات لا تنقطع خلف الستار، وإلىٰ تدخّل عسكري هزيل، وبالتالي إلىٰ هزيمة على أرض المعركة»[8].

---

(6) فلاپان «ولادة إسرائيل» ص 130 نقلاً عن تقرير أعده مايكل كومي عن محادثة مع الصحفية البريطانية كلير هولينغورث.

(7) محمد أمين الحسيني «حقائق عن قضية فلسطين»، (القدس ـ 1956) ص 22.

(8) يزيد صايغ «الكفاح المسلح والسعي لإقامة دولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، 1949 ـ 1993» (أكسفورد ـ 1977) ص14.

الصلة الهاشميَّة

الحلقة الأضعف في سلسلة الدول العربية المعادية التي كانت تحيط باليشوڤ من كل جانب، كانت شرق الأردن. فمنذ خلق إمارة شرق الأردن من قبل بريطانيا في سنة 1921، جهدت الوكالة اليهودية لإقامة علاقات صداقة مع حاكمها الهاشمي عبد الله بن الحسين. إن الصراع الذي لا يقبل تسوية بين الحركتين القوميتين اليهودية والعربية في فلسطين هيّأ المسرح لقيام علاقات خاصّة بين الصهيونيين وعبد الله، الذي صار ملكاً في سنة 1946 عندما حصل شرق الأردن على استقلال رسمي. وقد كان الإخفاق في التوصّل إلىٰ تفاهم مع جيرانهم الفلسطينيين حافزاً للزعماء الصهيونيين من أجل إيجاد ندّ للعداء المحلي عن طريق علاقات أفضل مع البلدان العربية المجاورة. والحقيقة، إن محاولة تجاوز عرب فلسطين وإقامة روابط مع حكّام الدول العربية صارت ملمحاً مركزياً في الدبلوماسية الصهيونية خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين.

إن الصداقة بين الحاكم الهاشمي والحركة الصهيونية وطّدها عدو مشترك يتمثَّل في شخص المفتي الأكبر، الحاج أمين الحسيني، قائد الحركة الوطنية الفلسطينيَّة. ذلك أن المفتي لم يضع قوّاته على خط التصادم مع اليهود فحسب، بل كان أيضاً المنافس الرئيسي لعبد الله من أجل السيطرة على فلسطين. وقد رأى كلا الجانبين في الروح الوطنية الفلسطينيَّة تهديداً، ولذلك كانت لهما مصلحة مشتركة في قمعها[9]. كان عبد الله من وجهة النظر الصهيونية حليفاً ذا

---

(9) بشأن العلاقات بين عبد الله والصهيونيين. راجع كتاب ماري ويلسون «الملك عبد الله وبريطانيا وصنع الأردن» «Abdullah, Britain and the Making of Jordan» (كامبردج ـ 1987) وكتاب جوزيف نيڤو «الملك عبد الله وفلسطين: طموح إقليمي» «Abdullah and Palestine: A Territorial Ambition» (لندن ـ 1996) ويوآڤ جيلبير «العلاقات بين اليهود وشرق الأردن، 1921 ـ 1948» (لندن ـ 1997) وكتاب آفي شلايم «تواطؤ عبر نهر الأردن: الملك عبد الله والحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين» (أكسفورد ـ 1988).

قيمة هائلة. فهو قبل كل شيء كان الحاكم العربي الوحيد المستعد لقبول تقسيم فلسطين والعيش بسلام مع دولة يهودية بعد أن تكون قد تمّت تسوية النزاع. الأمر الثاني هو، أن جيشه الصغير، الجيش العربي، كان الأفضل تدريباً والأكثر مهنية بين جيوش الدول العربية. الأمر الثالث، هو أن عبد الله ومساعديه وعملاءه كانوا مصدر معلومات عن البلدان العربية الأخرى ذات العلاقة بمشكلة فلسطين. وأخيراً، وليس آخراً، إن الصهيونيين استطاعوا من خلال عبد الله، توليد الريبة، وتغذية التنافس، ودسّ السُّم لإضعاف الائتلاف بين خصومهم العرب.

ففي سنة 1947، ومع دخول الصراع على فلسطين مرحلة حرجة، ازدادت الاتصالات بين الجانب اليهودي والملك عبد الله. لقد عقدت غولدا مائير، ممثِّلة الوكالة اليهودية، اجتماعاً سرياً مع عبد الله في نهاريم بتاريخ 17 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947. وقد توصّلا في هذا الاجتماع إلىٰ اتفاق أولي على تنسيق استراتيجيتيهما الدبلوماسية والعسكرية لوضع العقبات أمام المفتي ولبذل الجهود لمنع الدول العربية الأخرى من التدخّل مباشرة في فلسطين[10]. وبعد اثني عشر يوماً، أي في 29 تشرين الثاني (نوفمبر)، أصدرت الأُمم المتّحدة حكمها بتقسيم منطقة الانتداب البريطاني إلىٰ دولتين، إحداهما يهودية والأخرى عربية، وهذا ما جعل بالإمكان تثبيت التفاهم المؤقت الذي تمّ التوصّل إليه في نهاريم. فلقاء الوعد الذي قطعه عبد الله بعدم دخول المنطقة التي خصّصتها الأُمم المتّحدة للدولة اليهودية، وافقت الوكالة اليهودية على ضمّ معظم المنطقة المخصّصة للدولة العربية إلى شرق الأردن. لم ترسم حدود دقيقة ولم يتم بحث مسألة القدس لأنها كانت ستبقى بموجب خطة الأُمم المتّحدة جسماً

(10) عزرا دنين «حديث مع عبد الله، 17 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947» 1699/ 525، الأرشيف الصهيوني المركزي، القدس. راجع أيضاً كتاب شلايم «تواطؤ عبر نهر الأردن» ص: 110 ـ 117.

منفصلاً تحت إشراف دولي. ولم تكتب الاتفاقية خطياً. لقد حاولت الوكالة اليهودية أن تُلزم عبد الله باتفاقية خطية ولكنه كان يتهرّب. مع ذلك، وكما يقول ياكوف شيموني، وهو مسؤول كبير في الدائرة السياسية للوكالة اليهودية، أن التفاهم مع عبد الله، بالرغم من مراوغاته، كان:

«واضحاً تماماً بروحه العامة. أبدينا موافقة على استيلاء عبد الله على الجزء العربي من فلسطين، وعدم الوقوف في طريقه. لن نساعده، ولن نستولي على ذلك الجزء ونسلمه إليه. كان عليه أن يستولي عليه بوسائله وخططه الاستراتيجية، ولكننا لن نزعجه. وهو من جانبه، لن يمنعنا من إقامة دولة إسرائيل بواسطة تقسيم البلد وأخذ حصتنا وإقامة دولة فيها. أما الآن، فإن غموضه وكلامه الذي يحتمل أكثر من معنى، يتمثَّل في رفضه أن يكتب أي شيء على الورق أَو أن يخط على الورق أي شيء قد يكون ملزماً له. إنه لم يوافق على ذلك. ولكن بالنسبة للهدف، فقد كان حتى الدقيقة الأخيرة يردِّد دائماً القول مرّة تلو الأخرى: «لعلّكم تقبلون بأقل من الاستقلال الكامل وإقامة دولة، أي بحكم ذاتي كامل أَو بكنتون يهودي تحت سقف التاج الهاشمي». وقد حاول فعلاً أن يثير هذه الفكرة بين الحين والآخر، وكان دائماً، بطبيعة الحال، يقابل بجدار من الرفض. لقد قلنا له إننا نتحدَّث عن استقلال ناجز وكامل ولسنا مستعدين لبحث أي شيء آخر. ثم بدا كأنه استسلم لذلك ولكن دون أن يقول قط: «حسناً دولة مستقلّة». وهو لم يفه بهذه الكلمات ولم يُلزم نفسه، ولم يكن دقيقاً. ولكن هكذا كانت روح الاتفاق الذي كان بمجمله غير مبهم. بالمناسبة، تضمن الاتفاق نصاً يقول: (إذا نجح عبد الله في الاستيلاء على سورية، وحقَّق حلمه في سورية الكبرى ـ وهذا شيء لم نكن نعتقد أن لديه القوة لتحقيقه ـ فإننا لن نزعجه. ولكننا لم نكن أيضاً نؤمن بقوة الفئة المؤيدة له في سورية). ولكن الاتفاق تضمن نصاً يقول إنه إذا أنجز ذلك، فلن نقف في طريقه. أما فيما يخص الجزء العربي من فلسطين، فلم نكن نرى أن

هذا أمر خطير، ولم نكن نظن أن أمامه كل الفرص لأخذ هذا الجزء، لا سيما أن عرب فلسطين، بقيادتهم الرسمية، لم تكن لديهم الرغبة مطلقاً في إقامة دولة. وهذا كان يعني أننا لا نتدخّل في شؤون أحد. إنهم هم الذين رفضوا. ولو كانوا قبلوا بدولة ربما لم نكن دخلنا في المؤامرة. لا أدري. ولكن الحقيقة هي أنّهم هم الذين رفضوا، ولذلك كان هنا فراغ سلطة كامل فوافقنا على أن يمضي هو ويأخذ الجزء العربي، بشرط أن يوافق على إقامة دولتنا وعلى إصدار إعلان مشترك يقول بقيام علاقات سلمية بيننا وبينه بعد أن يهدأ الغبار. تلك كانت روح الاتفاق ولكن لا يوجد نص مكتوب»[11].

تحييد جيش الإنقاذ العربي

كان الملك عبد الله واسطة الصهيونيين الرئيسية للتحريض على مزيد من التوتر والعداوات في صفوف الائتلاف العربي الموبوء أصلاً بالتمزّق، ولكنه لم يكن الواسطة الوحيدة. فقد كان فوزي القاوقجي، قائد جيش الإنقاذ العربي، حلقة أخرى ضعيفة في سلسلة القوى العربية المتعادية. إن المفارز الأولى من جيش الإنقاذ بدأت تسلّلها إلى فلسطين في كانون الثاني (يناير) 1948. أما القاوقجي نفسه، فلم يصل إلى فلسطين حتى شهر آذار (مارس). وقد كان توجّه القاوقجي السياسي المعادي للحسيني فرصةً لحوار عبر خطوط المعركة التي كانت تتشكّل بسرعة بينما كان الانتداب البريطاني يقترب من نهايته المخزية.

كان يهوشوا (يوش) پالمون أحد أكثر ضبّاط الهاغانا كفاءة، وكان يتقن اللغة العربية. ومن خلال مراقبته السياسة العربية الفئوية عن كثب، علم پالمون بالكره الشديد الذي يكنّه القاوقجي للمفتي. واكتشف پالمون في سنة 1947 وثائق ألمانية تعود إلى زمن الحرب، لها تأثير في هذه الخصومة، فنقلها إلى

(11) مقابلة صحفية مع ياكوف شيموني، 26 آب (أغسطس) 1982، القدس.

القاوقجي. كان في هذه الوثائق ما يثبت ارتياب القاوقجي بأن المفتي هو الذي دبَّر اعتقاله وحبسه من قِبل السلطات الألمانية. وقد أبدى القاوقجي رغبة في لقاء مع پالمون، ولكن لدى تعيينه قائداً لجيش الإنقاذ الفلسطيني، تخلّى عن الفكرة. بيد أن پالمون علم من الضبّاط الذين سبقوا قائدهم في الوصول إلى فلسطين، أن القاوقجي لم يكن شديد الحماسة لمحاربة اليهود. والظاهر أنّه أدرك أن مثل هذه الحرب لن تكون قصيرة ولا سهلة وقيل إنه كان منفتحاً على مقترحات ترمي إلى تفاديها[12].

وافق داڤيد بن غوريون رئيس اللجنة التنفيذيَّة للوكالة اليهودية، على خطة پالمون لعقد اجتماع سري من أجل محاولة إقناع القاوقجي بالوقوف خارج القتال بين الهاغانا وقوات المفتي بشرط عدم إعطاء وعود بالحد من حرية التصرّف للرد على أية عصابات مسلَّحة[13]. ذهب پالمون للقاء مع القاوقجي في مقر قيادة الأخير في قرية نور شمس في الأول من نيسان (أبريل). وبعد كثير من الأحاديث المواربة، خاض پالمون في الموضوع الحقيقي الذي عقد الاجتماع من أجله، أي تحويل الخصومات بين العرب لمصلحة الجانب الذي يمثّله. قال پالمون إن بالإمكان إيجاد حل لمشكلة فلسطين لولا وجود المفتي. انخرط القاوقجي في حملة هجاء للمفتي وطموحاته الشريرة، وأساليب العنف التي يتبعها وأعوان المفتي الأنانيين. وعندما أتى پالمون على ذكر عبد القادر الحسيني، ابن عم المفتي، وحسن سلامة، تدخّل القاوقجي في الكلام قائلاً إنهما لا يمكن أن يعتمدا على أية مساعدة منه، وأنه، في الحقيقة، يأمل أن يعلمهما اليهود درساً لا يُنسى. عندئذ اقترح پالمون أن تمتنع الهاغانا ويمتنع

---

(12) تقرير لا يحمل توقيعاً: 16 آذار (مارس) 1948، 3569/ 525 الأرشيف الصهيوني المركزي.

(13) داڤيد بن غوريون، «يومان هاملحاماه، 1948 ـ 1949 أي مفكرة أيام الحرب: حرب الاستقلال، 1948 ـ 1949» 3 مجلدات، تحرير غيرشون ريڤلين والحانان أورين، (تل أبيب ـ 1982) المجلد الأول ص330.

جيش الإنقاذ العربي عن مهاجمة أحدهما الآخر وأن يضعا بدلاً من ذلك خطة للتفاوض بعد رحيل البريطانيين. وافق القاوقجي ولكنه أوضح صراحة أنه بحاجة إلىٰ تحقيق نصر عسكري لكي يثبت مكانته. لم يستطع بالمون أن يعده بتقديم النصر له على طبق من فضة. فإذا هُوجم اليهود، قال له، لا بدّ لهم من أن يصدّوا الهجوم. مع ذلك غادر بالمون الاجتماع بانطباع واضح أن القاوقجي سيقف على الحياد في حال وقوع هجوم يهودي على قوّات المفتي في فلسطين[14].

لم يتضح مدى نجاح بالمون في تحييد جيش الإنقاذ العربي إلاَّ من خلال تتابع الأحداث. ففي الرابع من نيسان (أبريل) شرعت الهاغانا في عمليَّة ناحشون لفتح طريق تل أبيب ـ القدس التي قطعها المقاتلون الفلسطينيون غير النظاميين. أولاً، نسف مقر قيادة حسن سلامة في الرملة. ومع أنّه كانت هناك في الجوار وحدة من جيش الإنقاذ العربي معزّزة بمدافع ثقيلة، لم تتحرّك هذه الوحدة لإنقاذ الوضع. لقد كان القاوقجي وفياً (أو مخلاً) للكلمة التي قطعها لبالمون. بعد ذلك جاءت معركة القسطل، وهي نقطة استراتيجية مشرفة على الطريق إلىٰ القدس، تبادل الجانبان احتلالها مرات عديدة وسط قتال شرس. اتصل عبد القادر الحسيني هاتفياً بالقاوقجي طالباً منه إمداداً سريعاً بالسلاح والذخيرة لصد الهجوم اليهودي. كان القاوقجي قد حصل على مخزون كبير من المواد الحربية، والفضل في ذلك يعود إلىٰ جامعة الدول العربية، ولكن، وفقاً لمركز التنصّت التابع للهاغانا الذي تنصّت على المخابرة الهاتفية، ردّ القاوقجي قائلاً إنه ليس لديه إمداد بالسلاح والذخيرة[15]. لقي عبد القادر الحسيني حتفه

---

(14) مقابلة صحفية مع يهوشوا بالمون، 31 أيار (مايو) 1982، القدس. راجع أيضاً دان كورتزمان «التكوين، 1948: الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى» (لندن ـ 1972)، ص: 67 ـ 69، وكتاب لاري كولينز ودومينيك لاپيير «واقدساه» (نيويورك ـ 1972) ص: 269 ـ 270.

(15) كورتزمان «التكوين، 1948» ص 137.

في معركة القسطل بتاريخ 7 نيسان (أبريل). كان عبد القادر الحسيني أقدر وأكثر شخصية جاذبيةً بين القادة العسكريين في معسكر المفتي، وكانت وفاته علامة انهيار قوات الحسيني في فلسطين.

الطريق إلىٰ الحرب

تحوَّل التيار الآن تحوّلاً حاسماً لمصلحة القوّات اليهودية. فقد سقطت مدن طبريا، وحيفا، وصفد، ويافا، ذات السكّان المختلطين في أيدي اليهود في تتابع سريع وبدأت الموجات الأولى من اللاجئين الفلسطينيين حركتها إلىٰ الخارج.. وبانهيار المقاومة الفلسطينيَّة، تعرّضت الحكومات العربية، وخاصة حكومة شرق الأردن، إلىٰ ضغط شعبي متزايد لإرسال جيوشها إلىٰ فلسطين لإيقاف الهجوم العسكري اليهودي. ولم يتمكّن الملك عبد الله من الصمود أمام هذا الضغط. إن تدفق اللاجئين الذين وصلوا إلىٰ شرق الأردن دفع الجيش العربي نحو مشاركة أكبر في شؤون فلسطين. إن الاتفاق الضمني الذي توصّل إليه عبد الله مع الوكالة اليهودية، مكّنه من الظهور بمظهر حامي العرب في فلسطين في حين أنه أبقى جيشه خارج المناطق التي خصّصتها الأمم المتّحدة للدولة اليهودية. غير أن المحافظة على هذا العمل المتوازن أخذت تزداد صعوبة. وإذا كانت الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية المعادية للهاشميين ترتاب في تآمر عبد الله مع الصهيونيين، فقد بدأت تميل إلىٰ التدخّل بالجيوش النظاميَّة في فلسطين، ولو من أجل الحدّ من طموح عبد الله الإقليمي فقط وقطع الطريق على مسعاه للهيمنة على المنطقة. وقد قرَّرت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية بتاريخ 30 نيسان (أبريل) أنّه يجب على جميع الدول العربية أن تعد جيوشها لغزو فلسطين في 15 أيار (مايو)، أي في اليوم الذي يلي انتهاء الانتداب البريطاني. وبضغط من شرق الأردن والعراق جرى تعيين الملك عبد الله قائداً عاماً لقوات الغزو[16].

(16) حكومة العراق «تقرير لجنة التحقيق النيابية في قضية فلسطين» (بغداد ـ 1949).

بدا لزعماء اليهود أن عبد الله كاد يوشك أن يضع ثقله مع بقية العالم العربي. ولذلك تمّ إرسال غولدا مائير في العاشر من أيار (مايو) إلىٰ عمان في مهمة سرِّيَّة لتحذير الملك من الإقدام على ذلك. بدا عبد الله مكتئباً ومتوتر الأعصاب. وقد رفضت غولدا مائير رفضاً قاطعاً العرض الذي تقدّم به بأن تتمتّع الأجزاء اليهودية بحكم ذاتي تحت تاجه، وأصرّت على الالتزام بخطتهما الأصلية التي تدعو إلىٰ دولة يهودية مستقلّة وضمّ الجزء العربي إلىٰ شرق الأردن. لم ينكر عبد الله أن ذلك هو ما تمّ الاتفاق عليه، ولكنه أوضح أن الوضع في فلسطين تغيّر بصورة جذرية وأنّه الآن واحد من خمسة، ولا خيار أمامه سوى أن ينضم إلىٰ الدول العربية الأخرى في غزو فلسطين. ظلت مائير على عنادها: إذا كان «عبد الله يريد التراجع عن اتفاقهما وإذا كان يريد الحرب، فإنَّهما سيعودان إلىٰ الاجتماع بعد الحرب وبعد تأسيس الدولة اليهودية». انتهى اللقاء بجو من البرودة الشديدة ولكن كلمات الوداع التي وجّهها عبد الله إلىٰ عزرا دانين، الذي رافق غولدا مائير وقام بعمل الترجمة لها، كانت مناشدةً بعدم قطع الاتصال، مهما حدث. كان نحو منتصف الليل عندما انطلقت مسز مائير وحرسها في رحلة عودة خطرة لتقدم تقريراً عن إخفاق مهمتها وحتمية الغزو[17].

في كتابة التاريخ الصهيوني يعرض اجتماع العاشر من أيار (مايو) عادة بأنّه برهان على عدم الثقة بصديق إسرائيل الوحيد بين العرب وإثبات لوقوف إسرائيل وحدها ضد هجوم شامل من قِبل عالم عربي موحّد. وقد ساعدت غولدا مائير ذاتها في نشر وجهة النظر القائلة إن الملك عبد الله أخلف وعده

(17) تقرير شفهي من غولدا مائير إلىٰ مجلس الدولة المؤقت المؤلَّف من ثلاثة عشر عضواً. أرشيف دولة إسرائيل، «مجلس الدولة المؤقت، محاضر، 18 نيسان (أبريل) ـ 13 أيار (مايو) 1948 (القدس ـ 1978) ص: 40 ـ 44. راجع أيضاً كتاب شلايم «تواطؤ عبر نهر الأردن» ص: 205 ـ 14.

لها، وأن الاجتماع انتهى باختلاف تام وأنهما افترقا كعدوين[18]. وتم استغلال تفسير الملك للقيود التي أرغمته على التدخّل كدليل على خيانته وغدره. زبدة الكلام هي: إن التهمة الصهيونية لعبد الله هي أنه عندما حانت لحظة الحقيقة نكث تعهده بعدم مهاجمة الدولة اليهودية وألقى بثقله مع بقية العالم العربي[19]. هذه التهمة ساعدت في استمرار القول المتداول الذي اتسع انتشاره، ومفاده أن نشوب الحرب كان تنفيذاً لخطّة غزو عربي شامل، منسّقة الأدوار وهدفها هو خنق الدولة اليهودية في المهد.

إن حقيقة ما جرى في اجتماع عبد الله ـ غولدا الثاني تنطوي على فروق دقيقة بين ما جرى في الاجتماع وما تريدنا هذه الرواية الصهيونية المنحازة أن نصدّقه. هنالك تقييم أكثر توازناً لموقف عبد الله قدَّمه ياكوف شيموني في اجتماع القسم العربي في الدائرة السياسية للوكالة اليهودية بتاريخ 13 أيار (مايو) في القدس، فهو يقول: «إن جلالته لم يكن خائناً كلياً للاتفاق، كما أنَّه لم يكن وفياً كلياً له، وإنما كان موقفه وسطاً بين الأمرين»[20]. حتى غولدا مائير، في روايتها عن مهمتها، التي قدّمتها لزملائها في مجلس الدولة المؤقت بعيد عودتها من عمّان، لم تكن في أي جزء من هذه الرواية بمثل عدم التعاطف وعدم التودّد اللذين أبدتهما في الرواية التي تضمنتها مذكراتها بعد ذلك بزمن طويل. فمن خلال تقريرها المعاصر عن مهمتها، يبرز عدد من النقاط الهامّة والتي كثيراً ما تُهمل. أولى هذه النقاط، أن عبد الله لم يتراجع عن كلمته، وإنما أكّد فقط أن الظروف تبدّلت. النقطة الثانية هي أن عبد الله لم يقل إنه يريد الحرب: إن

(18) كتاب غولدا مائير «حياتي» «My Life» (لندن ـ 1975) ص: 176 ـ 80.

(19) لعرض شامل لما كتب وللنقاش راجع مقال أبراهام سيلا «شرق الأردن وإسرائيل وحرب 1948: الأسطورة وكتابة التاريخ والواقع الحقيقي» دراسات شرق أوسطية. العدد 28، (1992) 623 ـ 88.

(20) دولة إسرائيل «وثائق سياسية ودبلوماسية، كانون الأول (ديسمبر) 1947 ـ أيار (مايو) 1948» (القدس ـ 1979) ص: 789 ـ 91.

غولدا مائير هي التي هدَّدته بعواقب وخيمة في حالة وقوع الحرب. النقطة الثالثة هي أنَّهما لم يفترقا كعدوين. على العكس من ذلك، بدا عبد الله حريصاً على استمرار الاتصال مع الجانب اليهودي حتى بعد نشوب الأعمال الحربية. كان عبد الله بحاجة لإرسال جيشه عبر نهر الأردن لكي يكتسب الإشراف على القسم العربي من فلسطين الملاصق لمملكته. ولم يقل شيئاً عن مهاجمة القوَّات اليهودية في أرضها. لقد كان التمييز بين الأمرين تمييزاً مرهفاً، ولم يعرف عن غولدا مائير أنها تتصف بالرهافة.

كان جزء من المشكلة اضطرار عبد الله للتظاهر بأنه مساير لبقية أعضاء جامعة الدول العربية التي رفضت بالإجماع خطة التقسيم التي أقرّتها الأُمم المتّحدة، وكانت شديدة المعارضة لإقامة دولة يهودية. بل بلغ الأمر أكثر من ذلك، فإن الخبراء العسكريين في جامعة الدول العربية أعدّوا خطّة موحّدة للغزو. وقد كانت هذه الخطة أشد خطراً، لأنّها كانت متلائمة مع القدرات الحقيقية للجيوش العربية النظامية أكثر من تلاؤمها مع الكلام البلاغي الجامح عن إلقاء اليهود في البحر. ولكن القوَّات التي وفّرتها الدول العربية فعلاً للحملة في فلسطين كانت أدنى كثيراً من المستوى الذي حدَّدته اللجنة العسكرية للجامعة العربية. وقد أفسد الملك عبد الله خطة الغزو بإدخاله تغييرات عليها في اللحظة الأخيرة. لم يكن هدفه من إصدار الأمر إلىٰ جيشه بعبور نهر الأردن الحيلولة دون إقامة دولة يهودية، بل كان هدفه أن يجعل نفسه سيد الجزء العربي من فلسطين. ولم تكن لدى عبد الله رغبة قط في أن تتدخّل الجيوش العربية الأخرى في فلسطين. فقد كانت خطة الجامعة العربية الأخرى منع التقسيم، وكانت خطته تنفيذ التقسيم، وكانت خطته تفترض، بل تتطلّب وجوداً يهودياً في فلسطين، ولو أنه كان يفضل حكماً ذاتياً يهودياً تحت تاجه. وبتركيزه قواته في الضفة الغربية كان ينوي أن يزيل نهائياً أية إمكانية لقيام دولة فلسطينية مستقلّة، وأن يضع شركاءه العرب أمام الضم كأمر واقع.

وعندما زحفت القوات إلىٰ فلسطين، كان سياسيو جامعة الدول العربية يواصلون في الكواليس مناوراتهم، ومكائدهم المعقّدة، ومحاولاتهم المزرية لطعن بعضهم بعضاً في الظهر ـ كل ذلك يرتكب باسم أسمى المُثُل القومية العربية. ولم تنته المماحكات السياسية عندما بدأت الحرب، بل امتزجت بها امتزاجاً لا خلاص منه منذ لحظة إطلاق أول رصاصة وحتى صمتت المدافع نهائياً واستمرّت بعد ذلك[21]. وفي الخامس عشر من أيار (مايو)، اليوم الذي بدأ فيه الغزو، وقع حدث أنذر بالكثير مما سيأتي بعده وفضح الأبعاد التي كان السياسيون العرب مستعدين للذهاب إليها في محاولاتهم التذاكي لخداع شركائهم. لقد أرسل الرئيس السوري شكري القوتلي رسالة إلىٰ الملك عبد الله قال فيها إن الضرورة تقتضي وقف الزحف إلىٰ فلسطين وإمداد الفلسطينيين بدلاً من ذلك بكل ما يمكن إمدادهم به من الأسلحة والمال. ارتاب عبد الله بالرسالة فاعتبرها حيلة لمعرفة نيّاته الحقيقية. فكان ردّه عليها الرفض القاطع للاقتراح[22]. كان جيشه قد تلقّى الأوامر بالزحف، وهكذا سبق السيف العذل.

وإذا كانت علاقات الملك عبد الله مع رفاقه القادة العرب قد هبطت إلىٰ

---

(21) أحد أكثر المصادر العربية كشفاً للشقاق والخداع داخل الائتلاف العربي هو البرلمان العراقي في «تقرير لجنة التحقيق» وعبد الله التل في كتابه «كارثة فلسطين» (القدس 1959) وصالح صائب الجبوري في كتابه «محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية» (بيروت ـ 1970) ومحمد حسنين هيكل في مقاله «العروش والجيوش، كذلك انفجر الصراع في فلسطين» (القدس ـ 1998). هناك عرضان ممتازان للمصادر العربية وكتابة التاريخ العربية عن حرب 1948، هما كتاب وليد خالدي «المنظور العربي» تحرير روجر لويس وروبرت ستوكي بعنوان «نهاية الانتداب على فلسطين» (لندن ـ 1986) ص: 104 ـ 36، وتاب أبراهام سيلا «كتابة التاريخ العربية لحرب 1948: نشدان الشرعية» في كتاب «سنوات الدولة» (نيويورك ـ 1991)، ص: 124 ـ 54.

(22) الملك عبد الله ملك الأردن «التكملة ـ مذكراتي اكتملت» ترجمها من العربية هارولد غليدن (لندن ـ 1978) ص: 20 ـ 21.

الحضيض، فإن اتصاله بالوكالة اليهودية انقطع كلياً. إن الزخم الذي ولده الضغط الشعبي العربي من أجل تحرير فلسطين لم يكن هناك سبيل لوقفه. اليهود أيضاً كانوا في مزاج مماثل، مزاج شرس غير مهاود: بعد أن أعلنوا قيام دولتهم كانوا مصمّمين على القتال من أجلها، مهما كان الثمن. إن ما ذهبت مسز مائير لنقله إلى الملك عبد الله، كان إنذاراً نهائياً، وليس رسالة تعاطف أو مساعدة في معالجته لمشاكله العربية البينية. والاتفاق الهاشمي ـ الصهيوني، الذي مضى على صياغته ثلاثون سنة، بدا وكأنه على وشك أن يتفكّك وسط المهاترات القاسية. وكانت خمسة جيوش تتحرّك، قاضية بتحركها على الأمل في تقسيم فلسطين سلمياً، ذلك الأمل الذي كان في صلب هذا الاتفاق. ومع انتقال الأمر إلى أيدي الجنود في الجانبين، بدت احتمالات إنقاذ أي شيء من حطام الاتفاق الصهيوني ـ الهاشمي غير مضمونة في أحسن الأحوال.

الهجوم

جولة القتال الأولى التي امتدت من 15 أيار (مايو) حتى 11 حزيران (يونيو) كانت فترة حرجة، بدا خلالها مصير الدولة اليهودية الوليدة معلقاً في الميزان. خلال هذه المدة، عانى السكّان اليهود، مدنيين وعسكريين، من إصابات فادحة، بدايتها كانت صدمة الاشتباك مع جيوش عربية نظاميَّة، وعانى السكّان اليهود من محنة تركت على الحالة النفسية الوطنية علامات لا تُمحى. أما الذين عاشوا هذه المحنة، فكان الشعور بكونهم «معاتيم مول رابيم ـ أي القلّة ضد الكثرة»، شعوراً حقيقياً. خلال تلك المدة كان الجيش الإسرائيلي مشتبكاً في معركة على جميع الجبهات، ضد الجيوش الخمسة المتقدمة. كان الجيش الإسرائيلي متفوّقاً على مجموع قوات الحملة العربية، ولكنه كان يعاني من ضعف مزمن في القوة النارية. ولم يتم تصحيح هذا الضعف إلاّ بوصول شحنات من الأسلحة المهرّبة من الكتلة الشرقية خلال الهدنة الأولى. كان

الشعور بالعزلة وبوجود مقتل شعوراً طاغياً. وخلال هذه المدة القصيرة نسبياً، غير أنها مدّة تركت جروحاً غائرة، تشكّلت الذاكرة الجماعية الإسرائيلية عن حرب /1948/ [23].

بيد أن قادة إسرائيل السياسيين والعسكريين كانت لديهم صورة أكثر واقعية لنيّات خصومهم وقدراتهم. إن داڤيد بن غوريون، الذي صار رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع بعد قيام الدولة، توقع من عبد الله أن يستولي على الجزء العربي من فلسطين بموجب الاتفاق الضمني الذي توصل إليه مع غولدا مائير في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1947. ولذلك لم تكن مفاجأة كبيرة له عندما علم من مسز مائير في شهر أيار (مايو) 1948 أن عبد الله ينوي غزو فلسطين. كان السؤال الحقيقي هو: هل كان مسعى عبد الله للاستيلاء على فلسطين العربية سيورطه في اشتباك مسلّح مع القوّات الإسرائيلية؟

لم يطل انتظار بن غوريون للحصول على جواب عن هذا السؤال. فما كادت الجيوش العربية تدخل فلسطين حتى كان الجيش الأردني يتبادل الضربات مع الجيش الإسرائيلي، بعض أشرس المعارك في الحرب بكاملها جرت بين هذين الجيشين في القدس وحول القدس. فقبل انتهاء الانتداب البريطاني، وقعت حادثة ألقت بظلالها المديدة على العلاقات بين «اليشوڤ» وشرق الأردن. فقد شنت مفرزة من الجيش الأردني هجوماً شاملاً بالسيارات المصفّحة والمدافع على غوش عتسيون، وهي كتلة من أربع مستوطنات على جانبي طريق القدس ـ الخليل. وبعد استسلام المدافعين، قتل بعضهم على أيدي القرويين العرب من منطقة الخليل، والبقية منهم أسرهم الجيش الأردني [24]. كتلة

(23) أنيتا شاپيرا، «السياسة والذاكرة الجماعية: النقاش حول المؤرخين الجدد في إسرائيل» التاريخ والذاكرة، العدد 7 (1995) ص. 9 ـ 40.

(24) الميجور (الرائد) عبد الله التل، الذي قاد الهجوم. يكشف في مذكراته أنه تحايل =

عتسيون كانت جيباً وسط منطقة سكانها من العرب فقط ومخصّصة من قبل الأُمم المتّحدة للدولة العربية. مع ذلك، لم يكن من السهل التوفيق بين هذا الهجوم العنيف من جهة، وما سبقه من مجاهرات عبد الله بالصداقة أَو رغبته المعلنة بتجنّب الأعمال الحربية.

وفي القدس، فقد أخذ الجانب اليهودي المبادرة. فما أن جلا البريطانيون عن المدينة، حتى بدأ هجوم شديد للاستيلاء على الأحياء العربية والمختلطة في المدينة لتشكيل منطقة صلبة تمتد حتى أسوار المدينة القديمة. تبنّى غلوب باشا، قائد الجيش الأردني، استراتيجية دفاعية كانت الغاية منها الحيلولة دون اصطدام مباشر مع القوات اليهودية. ووفقاً لروايته للأحاث، عَبَرَ الجيشُ الأردني نهرَ الأردن بتاريخ 15 أيّار (مايو) لمساعدة العرب في الدفاع عن منطقتي «اليهودية» و«السامرة» المخصصتين لهم. وكان دخول القدس محظوراً حظراً صارماً على الجنود الأردنيين، أَو دخول أية منطقة خصّصها مشروع التقسيم للدولة اليهودية. ولكن القوات اليهودية حاولت في السادس عشر من أيّار (مايو) أن تندفع إلىٰ المدينة القديمة، الأمر الذي استدعى نداءات عاجلة من المدافعين العرب. في 17 أيّار (مايو) أمر الملك عبد الله غلوب باشا بإرسال قوة للدفاع عن المدينة القديمة.[25] تبع ذلك قتال شرس، فقد أوقع جنود الجيش الأردني دماراً كثيفاً جداً وإصابات بين المدنيين عندما قصفت المدينة الجديدة، أي الأحياء اليهودية في القدس. استسلم الحي اليهودي بتاريخ 28 أيّار (مايو) داخل المدينة القديمة نهائياً للجيش الأردني.

بعد وقف الهجوم اليهودي على القدس، انتقلت نقطة التركيز في المعركة

= على غلوب باشا لكي يسمح له بأن يرسل على وجه السرعة تعزيزات إلىٰ وحدة أخرى قيل كذباً إنّها وقعت في كمين يهودي في كفار عتسيون. راجع كتاب التل «كارثة فلسطين» ص: 31 ـ 34.

(25) جون باغوت غلوب «جندي مع العرب» (لندن ـ 1957) ص110.

إلىٰ اللطرون، وهي نتوء في هضبة مع تحصينات، يسيطر على الطريق الرئيسية من تل أبيب إلىٰ القدس. واللطرون، شأنها شأن غوش عتسيون، تقع في المنطقة التي خصّصتها الأُمم المتّحدة للدولة العربية. ولكن أهمية اللطرون الاستراتيجية كانت كبيرة، الأمر الذي جعل بن غوريون يصمِّم على احتلالها. وقد خالف بن غوريون نصائح جنرالاته فأمر بشنّ ثلاث هجمات مباشرة على اللطرون في 25 و30 أيّار (مايو) و9 حزيران (يونيو). وقد صدّ الجيش الأردني كل هذه الهجمات وأوقع خسائر فادحة بالقوّات اليهودية التي كان إعدادها على عجل وكانت معداتها ضعيفة.

لقد تبخّر أي أمل كان متبقياً بأن يتصرَّف شرق الأردن على نحو مختلف عن بقية البلدان العربية، وذلك نتيجة للاشتباكات المكلفة في القدس وحولها. لقد رفض ييغال يادين، رئيس علاقات الجيش الإسرائيلي رفضاً باتاً الادعاء القائل إنَّه كان هناك في أي وقت من الأوقات أي تواطؤ بين الوكالة اليهودية وحاكم شرق الأردن، دعك عن وجود تواطؤ خلال حرب 1948، فهو يقول:

«إنّه خلافاً لِوجهة نظر كثير من المؤرخين، فإني لا أعتقد أنّه كان هناك اتفاق أَو حتى تفاهم بين بن غوريون وعبد الله. وربما كانت لديه أفكار معبرة عن تمنيات.. ولكنه حتى أيّار (مايو) 1948، لم يُعوَّل عليها ولم يفترض أن اتفاقاً مع عبد الله بل أن يحيد الجيش الأردني. يمكن على العكس من ذلك، كان تقديره للأمور أن الاشتباك مع الجيش الأردني حتمي. وحتى لو كان لدى بن غوريون تفاهم أَو آمال، فإنها تبخرت لحظة زحف عبد الله على القدس. كان هناك أولاً الهجوم على كُفَار عتسيون، ثم الاستيلاء على موقع في اللطرون من أجل السيطرة على الطريق المؤدية إلىٰ القدس، وبعد ذلك دخول القدس. لقد كان واضحاً من هذه التحركات أن عبد الله كان في نيته أن يستولي على القدس»[26].

(26) مقابلة صحفية مع اللفتنانت جنرال ييغال يادين، 19 آب (أغسطس) 1982، القدس.

لا يمكن الاستهانة بشهادة يادين لأنها عكست إجماع وجهات نظر الأركان العامة للجيش الإسرائيلي على أن الصلة مع شرق الأردن لم يكن لها تأثير على سلوك إسرائيل العسكري خلال حرب الاستقلال. ووفقاً لما قال الميجور جنرال موشي كارمل، قائد الجبهة الشمالية: «شعرنا جميعاً A la guerre Comme a la guere أي علينا أن نواجه الصعوبات مهما كانت، وأن علينا أن نعمل ضد كل القوّات العربية التي غزت البلد»[27]. إن ما يجب أن يكون موضوع تساؤل هو افتراض قادة إسرائيل العسكريين أن عبد الله كان ينوي أن يستولي على القدس.

إحدى المفارقات الكثيرة التي ظهرت في 1948 هي أن أكبر سوء تفاهم ـ أعني سوء التفاهم بين إسرائيل وشرق الأردن ـ تبعته لدى نشوب الحرب أكثر المعارك دموية. وأحد تفسيرات هذه المفارقة هو أنّه ضمن التفاهم الضمني بين الجانبين، كان يوجد مجال واسع لحالات من سوء الفهم. وكانت القدس المنطقة الأكثر احتمالاً لنشوء حالات سوء التفاهم فيها بسبب أهميتها الرمزية والاستراتيجية، ولما كان مقرراً أن تكون جيباً منفصلاً تحت إدارة دولية، فقد سمح ذلك لكلا الجانبين عدم الكشف عن مخاوفهما وآمالهما. وقد بدا شرق الأردن وإسرائيل في جولة القتال الأولى، التي انتهت بتنفيذ الهدنة الأولى التي أقرّتها الأُمم المتّحدة في 11 حزيران (يونيو)، وكأنّهما أسوأ عدوين. بيد أنّهما كانا يبدوان في بقية الحرب، على حد قول أحد الكتاب الإسرائيليين في عبارة ذكية «أفضل الأعداء»[28].

لم تكن الجيوش العربية الأخرى في مثل فاعلية الجيش الأردني في جولة القتال الأولى. ولم يكن هناك سوى القليل من التنسيق بين الجيوش العربية،

---

(27) مقابلة صحفية مع الميجور جنرال موشي كارمل، 1 أيلول (سبتمبر) 1983، تل أبيب.

(28) أوري بار ـ جوزيف «أفضل الأعداء: إسرائيل وشرق الأردن في حرب 1948» «The Best of Enemies: Israel and Transjordan in The War 1948» (لندن ـ 1987).

وفي الواقع العملي، لم يكن بينها أي تعاون. ورغم أن المقر العام لقيادة الجيوش العربية كان واحداً برئاسة الجنرال العراقي نور الدين محمود، غير أن هذا المقر العام لم تكن له سيطرة فعّالة على تلك الجيوش، وإن العلاقات العسكرية لم تسر وفق الخطة المتفق عليها. وبعد إنجاز الاختراق الأول في الدخول إلىٰ فلسطين، بدأ كل جيش يخشى أن يعزله العدو من مؤخرته. وبالتالي، بدأت الجيوش العربية، واحداً بعد الآخر، تتخذ مواقع دفاعية. أرسل الجيش المصري رتلين من قواعده الأمامية في سيناء. أحدهما تقدم شمالاً على الطريق الساحلية باتجاه تل أبيب. لكن تقدمه تباطأ بسبب محاولاته، التي أجهض معظمها، الاستيلاء على المستوطنات اليهودية المتناثرة في شمال النقب. وقد واصل الرتل تقدمه، متجاوزاً المستوطنات، إلىٰ أن أوقفه لواء النقب في اسدود على بعد عشرين ميلاً من تل أبيب بتاريخ 29 أيّار (مايو). أما الرتل الثاني، الذي ضم متطوعين من الإخوان المسلمين، فقد انطلق نحو القدس عبر بئر السبع، والخليل وبيت لحم. وقد أوقف في كيبوتس رامات راحيل، عند الطرف الجنوبي للقدس بتاريخ 24 أيّار (مايو). كانت وحدة من الجيش الأردني بالقرب من هذا المكان لكنها لم تمد يد المساعدة إلىٰ المقاتلين المصريين. وهكذا، فإن التقدم المصري توقف بعد عشرة أيام فقط من القتال.

أما الجيش العراقي فقد تمكّن، رغم الصعوبات اللوجستية، من تجميع قوة ذات حجم كبير، معزّزة بالدبابات والمدفعية، من أجل تحرير فلسطين. لقد شنّ الجيش العراقي في الأيام الثلاثة الأولى التي أعقبت انتهاء الانتداب، هجمات على ثلاث مستوطنات يهودية، فصدّت هذه الهجمات جميعها. ولدى تخليه عن محاولة الاستيلاء على مستوطنات يهودية، تراجع الجيش العراقي، وأعاد تجميع قواته، واتخذ مواقع دفاعية في «المثلث» المحدد بمدن جنين، ونابلس، وطولكرم، وهي مدن عربية كبيرة. وعندما هاجمته وحدات من الجيش الإسرائيلي، في جنين مثلاً، صمد في مواقعه. وكان يطلق أحياناً

رشقات من النيران على المنطقة اليهودية، ولكن لم تستمر أي منها أكثر من بضع ساعات، ومع أن أقصى نقطة وصل إليها الجيش العراقي غرباً لم تبعد سوى أقل من عشرة أميال عن البحر الأبيض المتوسط، فإنّه لم يحاول الاندفاع نحو البحر ليشطر إسرائيل إلىٰ شطرين. أحد أسباب سلبية القادة العسكريين العراقيين النسبية كان الخوف من عزل قواتهم من قبل العدو. ثمة سبب آخر هو عدم الثقة بالجيش الأردني، أَو بكلام أدق، من قائده الأجنبي غلوب باشا. لقد ادعى صالح صائب الجبوري، رئيس الأركان العراقي، أن إخفاق الجيش الأردني في تنفيذ المهمة المسندة إليه في خطة الغزو العامة، هي التي عَرَّضَت الجيش العراقي لهجمات من الإسرائيليين ومنعته من تحقيق أهدافه. وفي رأي الجبوري، إن الجيش الأردني كان يتصرّف بصورة مستقلّة طوال الوقت، الأمر الذي كانت له نتائج رهيبة على الجهد العربي العام في الحرب[29].

عَبَرَ السوريون شمالاً إلىٰ إسرائيل إلىٰ جنوب بحيرة طبريا تماماً واحتلوا سمخ، وشعار هاغولان، ومسعدة، قبل أن يتم وقفهم عند دغانيا، عندئذ تراجعوا، وأعادوا تجميع قواتهم وشنّوا هجوماً آخر بعد أسبوع شمال بحيرة طبريا. احتلوا هذه المرة مشمار هايارادن، وأوجدوا لأنفسهم موطىء قدم على الجانب الإسرائيلي من نهر الأردن، ولم يتمكّن الجيش الإسرائيلي من زحزحتهم من هذا الموقع. وبينما كان السوريون يقاتلون في وادي الأردن، اخترقت القوّات اللبنانية البوابة الشرقية من لبنان إلىٰ إسرائيل واستولت على المالكية وقادش. إن العلاقات التي قام بها الجيش الإسرائيلي وراء الخطوط وضد القرى داخل لبنان، أفلحت في إيقاف الهجوم اللبناني. ومع نهاية شهر أيار (مايو) كان الجيش الإسرائيلي قد استعاد المالكية وقادش وأرغم الجيش اللبناني على اتخاذ موقف الدفاع.

---

(29) جبوري «محنة فلسطين» ص: 189 ـ 90.

كان الغزو العربي المشترك والمتزامن بمجمله أقل تنسيقاً وأقل تصميماً وأقل فاعلية مما كان يخشاه قادة إسرائيل. فالنجاح في الصمود أمام الهجوم العربي عزّز إلىٰ حد كبير ثقة إسرائيل بنفسها. وقد كان بن غوريون حريصاً بشكل خاص على استغلال النجاحات الأولى للجيش الإسرائيلي للانتقال إلىٰ الهجوم وتجاوز خطوط التقسيم التي رسمتها الأُمم المتّحدة. وفي 24 أيّار (مايو)، أي بعد إعلان الاستقلال بعشرة أيام فقط، طلب بن غوريون من الأركان العامة الإعداد لهجوم يهدف إلىٰ سحق لبنان، وشرق الأردن، وسورية. وقد كتب في مفكرته اليومية ما يلي:

> «لبنان هو الحلقة الضعيفة في الائتلاف العربي. والحكم الإسلامي مصطنع ويسهل تقويضه. يجب قيام دولة مسيحية حدودها الجنوبية الليطاني. سنوقّع معها معاهدة. وبواسطة كسر قوة الجيش الأردني وقصف عَمَّان سننتهي من أمر شرق الأردن وعندها ستسقط سورية. وإذا وجدت مصر في نفسها الجرأة على مواصلة القتال ـ سنقصف بور سعيد والإسكندرية والقاهرة»[30].

كانت هذه الخطط مفرطة في طموحها. ومع نهاية الأسبوع الأول من شهر حزيران (يونيو) خيم على الجبهة الوسطى ركود واضح، وساد كل الجبهات الأخرى كذلك وضع غير مستقر. فالهدنة التي نظمتها الأُمم المتّحدة صارت نافذة المفعول في 11 حزيران (يونيو). فقد جاءت هذه الهدنة للإسرائيليين، حسب قول موشي كارمل، كالندى من السماء. فمع أن الإسرائيلين نجحوا في وقف الهجوم العربي، كانت قوّاتهم المقاتلة قد بلغت حدود طاقتها وصارت بحاجة ماسَّة إلىٰ مهلة للاستراحة، وإعادة تنظيم نفسها وتدريب مجندين جُدد. واستفاد الجانب الإسرائيلي من هدنة الأسابيع الأربعة

---

(30) بن غويون، «يومان هاملحاماة»، المجلد الثاني، ص: 453 ـ 54.

لاستحضار شحنات كبيرة من الأسلحة من الخارج، وذلك خرقاً للحظر الذي فرضته الأُمم المتّحدة ـ دبابات، وسيارات مصفحة، ومدفعية، وطائرات. أما في الجانب العربي، فقد أُهدرت الهدنة إلىٰ حد كبير. إذ لم يقدم أي بلد عربي على استعدادات جدية لإعادة التنظيم وإعادة تجهيز الجيش ليكون في وضع أفضل في حالة استئناف الأعمال الحربية. إن الحظر الذي فرضته الأُمم المتّحدة كان مطبّقاً من الناحية النظرية على جميع الأطراف المتحاربة ولكنه عملياً ألحق الضرر بالعرب وساعد إسرائيل لأن الدول الغربية التزمت به أما الكتلة السوفيتية فلم تلتزم[31]. وترتب على ذلك أن كانت الهدنة الأولى نقطة تحوّل في تاريخ الحرب. إذ شهدت هذه الهدنة تحولاً حاسماً في ميزان القوى لمصلحة إسرائيل.

جولة القتال الثانية

عادت المنافسات بين العرب إلىٰ الظهور بمزيد من الزخم خلال الهدنة. فقد كانت الحرب بالنسبة للملك عبد الله قد انتهت. وبدأ ينشط في كواليس العالم العربي من أجل ضم ما تبقّى من فلسطين العربية إلىٰ مملكته. ولم يكتم وجهة نظره القائلة إن استئناف الحرب سيكون كارثياً للعرب. غير أن الحل الذي خرج به لم يكن مقبولاً من أي بلد عضو في الائتلاف العربي. كانت سورية ولبنان تنظران إلىٰ عبد الله كتهديد دائم لاستقلالهما، بينما كان الملك فاروق يرى فيه خطراً متزايداً على هيمنة مصر في العالم العربي. لقد أغفل الكونت فولك برنادوت، وسيط الأُمم المتّحدة، أية إشارة إلىٰ قرار التقسيم الذي أقرّته الأُمم المتّحدة، فاقترح تقسيم فلسطين كما كانت تحت الانتداب،

---

(31) أميتزور إيلان، «أصول سباق التسلّح العربي ـ الإسرائيلي: الأَسلحة، الحظر، القوة العسكرية والقرار في حرب فلسطين سنة 1948» (بيزينغستوك ـ 1996) وروبرت دانين «صعود وسقوط الرقابة على الأَسلحة في الشرق الأَوسط، 1947 ـ 1955: المشاورات، والتنسيق، والتنافس بين الدول الكبرى»، (أطروحة دكتوراه، جامعة أُكسفورد، 1999).

بين إسرائيل وشرق الأردن. وما كان بوسع عبد الله أن يطلب أكثر من ذلك، ولما كانت جامعة الدول العربية وإسرائيل قد رفضتا على الفور مقترحات برنادوت، فإنه لم ير جدوى في أن يمضي وهو مخذول من الجميع، في السعي لقبول هذه المقترحات علناً.

وإذ أخفق برنادوت في تسويق تسوية لمشكلة فلسطين، اقترح تمديد الهدنة التي كان التاسع من تموز (يوليو) موعد انتهائها. ومرة أخرى وجد شرق الأردن نفسه وحيداً في موقع الأقلية ضمن جامعة الدول العربية. لقد نبه جميع القادة العسكريين العرب إلىٰ فداحة وضع الإمدادات لديهم، ولكن السياسيين اقترعوا بالموافقة على عدم تمديد الهدنة. ولمعالجة صعوبة استئناف الأعمال الحربية وقد استُنزِفت ترسانات الأسلحة، فقد استقر رأي السياسيين العرب على اتباع استراتيجية دفاعية هدفها الثبات في المواقع الراهنة. ارتاب الملك عبد الله في هذا القرار ورأى فيه نيّة شريرة هدفها تقويض استراتيجيته الدبلوماسية وزجّ جيشه في حرب مع الإسرائيليين قد تسبب كارثة. ولذلك فقد استدعى الكونت برنادوت إلىٰ عَمَّان ليعَبِّر له عن شديد انزعاجه من إمكانية نشوب الحرب من جديد، وليحثّه على استخدام كامل سلطة الأُمم المتّحدة من أجل إحباط قرار جامعة الدول العربية الداعي إلىٰ الحرب[32]. ولكن المصريين أجهضوا مسعاه عندما شنّوا هجوماً في الثامن من تموز (يوليو)، وبذلك وضعوا حداً للهدنة وألزموا الجانب العربي بأمر لا رجوع عنه، هو خوض جولة ثانية من القتال.

كان عبد الله معارضاً لجولة قتال ثانية، لكنّ غلوب باشا كان أكثر منه معارضة لإقحام الجيش في الجولة الثانية. فقد كان لدى جيشه ما يكفي لأربعة أيام من الاشتباكات فقط: وليس من بارقة أمل في التعويض. والحقيقة هي أن

(32) فولك برنادوت «إلىٰ القدس» ترجمة جوان بولمان، (لندن ـ 1951) ص: 163 ـ 64. عارف العارف «النكبة» 6 مجلدات (بيروت وصيدا، 1956 ـ 60) من بيري ـ غوردون إلىٰ ب. أ. بروز، 25 تموز (يوليو) 1948، وزارة الخارجية البريطانية 371/ 68822.

الجيش الأردني كان لا يبدي أي رد فعل في الجولة الثانية إلاّ إذا هُوجم. وعندما استؤنفت الأعمال الحربية سارع الجيش الإسرائيلي إلىٰ أخذ زمام المبادرة في الجبهة الوسطى بتنفيذه عملية داني. كان الهدف في المرحلة الأولى هو الاستيلاء على اللد والرملة. وكان الهدف في المرحلة الثانية هو فتح ممر واسع إلىٰ القدس بالاستيلاء على اللطرون ورام الله. هذه البلدات كلها كانت مخصّصة للدولة العربية وتقع في المحيط الذي يحتله الجيش الأردني. ففي 12 تموز (يوليو) استولت القوّات الإسرائيلية على اللد والرملة وأرغمت سكانهما على الهرب شرقاً. أما في اللطرون، فإن الهجوم الإسرائيلي أُحْبِطَ مثلما حدث في آخر دقيقة لمحاولة الاستيلاء على مدينة القدس القديمة.

إن جيش الإنقاذ العربي، وجيوش مصر، والعراق، وسورية، ولبنان أصيبت جميعها ببعض النكسات إبان جولة القتال الثانية. وقد بلغ هجوم الجيش الإسرائيلي في الشمال ذروته باحتلال الناصرة و«تحرير» كامل الجليل الأدنى من القوات المغيرة. ومن ناحية أخرى، لم تنجح محاولة إخراج القوّات السورية من نتوء مشمارها ياردن وانتهى القتال إلىٰ جمود في حركة الجانبين. وقد تحسّن تحسناً كبيراً وضع إسرائيل العام نتيجة قتال الأيام العشرة. لقد أخذت إسرائيل زمام المبادرة واحتفظت به حتى نهاية الحرب.

بدأ تنفيذ الهدنة الثانية التي دعت إليها الأُمم المتّحدة في الثامن عشر من تموز (يوليو)، وخلافاً للهدنة الأولى، لم تحدد لها مدة. وبمجرد أن سكتت المدافع استأنف السياسيون العرب حرب الكلام ضد بعضهم بعضاً. لقد نشط الضباط السوريون والعراقيون ومعهم عزّام باشا، في تعميم الكلام القائل إن الجيش الأردني قد حيل بينه وبين استخدام كامل قوته ضد اليهود، بسبب خيانة الضبّاط البريطانيين وحجب الحكومة البريطانية الإمدادات عنه. وأبدى ضباط الجيش العراقي العاملون في شرق الأردن عداءً خاصاً للبريطانيين الذين كانوا

يؤدون خدمتهم في الجيش الأردني[33]. إن الشك في أن غلوب كان يعمل لفرض سياسة التقسيم التي تنفذها لندن كان السبب في انهيار العلاقات بين الجيشين الهاشميين والغيرة التي أبداها الفرع العراقي في العمل لحماية حريته في التصرّف[34].

هدوء في العاصفة

ظل عبد الله خلال هدوء العاصفة يداعب فكرة المفاوضات الثنائية مع إسرائيل لتسوية مشكلة فلسطين. ومع أن الحرب لم تسر وفق ما هو مخطّط لها، فقد أدّت غرضها الأساس حيث مكّنته من احتلال المناطق الوسطى في فلسطين العربية. لم يكن ثمة ما يمكن كسبه من اللجوء إلى السلاح، وليس هذا فحسب، بل إن اللجوء إلى السلاح يمكن أن يعرض مكاسبه على الأرض للخطر وجيشه أيضاً، الذي يعتبر الركيزة الأساس لنظام حكمه ووسيلة دفاعه الوحيدة ضد خصومه العرب. وبناء على ذلك، حوّل اهتمامه من الصعيد العسكري إلى الصعيد السياسي.

كانت لدى الإسرائيليين أسبابهم الخاصة لمعاودة اتصالهم المباشر مع صديقهم القديم. فالانشقاق في المعسكر العربي أتاح لهم فسحة واسعة للمناورة. لقد زحف العرب على فلسطين معاً ولكن بعد أن تعرّضوا لنكسات عسكرية، فقد ازداد اهتمام كل بلد عربي باحتياجاته الخاصة. كان كل بلد يلعق جراحه ولم يكن في وضع أَو مزاج يسمح له بمساعدة الآخرين أَو بإخضاع مصالحه للقضية المشتركة. في تلك الظروف، كان كل من يبحث عن تصدعات في جدار وحدة العرب يستطيع أن يعثر عليها بسهولة. أما إسرائيل، التي كانت

---

(33) من سير اليك كيركبرايد إلى وزارة الخارجية البريطانية. 6 آب (أغسطس) 1948، وزارة الخارجية البريطانية 371/ 68830.

(34) محمد مهدي كبة، «مذكراتي» (بيروت ـ 1965) ص: 261 ـ 67.

تعيش انتصاراتها العسكرية الماثلة في أذهان الجميع، فقد كانت في وضع يمكنها من الإيقاع بين العرب[35]. تلك كانت خلفية الاتصال المتجدد مع مبعوثي الملك عبد الله في أيلول (سبتمبر) 1948.

ألحقت شائعات عودة عبد الله إلىٰ الاتصال بالقادة اليهود مزيداً من الأذى بمكانته في العالم العربي. وقد رأى نقّاده الكثيرون أنه كان مستعداً للتهاون بمطلب العرب بكامل فلسطين ما دام يستطيع الحصول لنفسه على جزء من فلسطين. لقد قال غلوب: «إن مقارعات العرب المدمّرة لهم جميعاً كانت لها في أذهان السياسيين العرب مكانة تعلو على الكفاح ضد اليهود. لقد كان أسهل على كل من عزام باشا، والمفتي، والحكومة السورية أن يستولي اليهود على كامل فلسطين ولا أن تعود الفائدة إلىٰ عبد الله»[36].

ومن أجل إحباط طموح عبد الله، قرَّرت الدول الأعضاء الأخرى في جامعة الدول العربية، وفي مقدمتها مصر، في اجتماع عُقد في الإسكندرية في السادس من أيلول (سبتمبر) الموافقة على إقامة حكومة لعموم فلسطين مقرها في غزة. كان هذا القرار أقل مما يجب، وكان متأخراً أكثر مما يجب. إن الرغبة في استرضاء الرأي الناقم على الحكومات العربية لعجزها عن حماية الفلسطينيين، كان لها الاعتبار الأكبر. إن قرار تشكيل حكومة عموم فلسطين في غزّة، والمحاولة الهزيلة لإيجاد قوات مسلحة تحت إشرافها، وفّرت للدول الأعضاء في الجامعة العربية وسيلة للتخلّص من المسؤولية المباشرة عن متابعة أمور الحرب وسحب جيوشها من فلسطين مع توفير بعض الحماية لنفسها من نقمة الشعب. ومهما كان مستقبل حكومة عموم فلسطين على المدى الطويل، فإن الغاية المباشرة من تشكيلها، وفق ما خطر لرعاتها المصريين، أن تكون

(35) مقابلة صحفية مع يهوشوا پالمون، 31 أيار (مايو) 1982، القدس.

(36) من غلوب إلىٰ بروز، سري وشخصي، 22 أيلول (سبتمبر) 1948، وزارة الخارجية البريطانية 371/ 68861.

نقطة تركيز في معارضة عبدالله، وأن تستخدم أداة لإحباط طموحه لقيام اتحاد فدرالي بين المناطق العربية وشرق الأردن.

غير أن التباين بين التعللات الباطلة لحكومة عموم فلسطين من جهة، وقدرتها من جهة أخرى، سرعان ما هبط بها إلىٰ مستوى المهزلة. لقد ادعت بأن لها سلطة على فلسطين بكاملها، ومع ذلك فلم تكن لها إدارة، أَو خدمة مدنية، ولم يكن لديها مال، ولا جيش حقيقي خاص بها. وحتى في الجيب الصغير المحيط بمدينة غزّة لم تكن قراراتها الرسمية نافذة إذا لم تباركها السلطات المصرية. استفاد محاسبو الرواتب المصريون من اعتماد الحكومة الجديدة عليهم في تمويلها وحمايتها، فاستخدموا هذه الحكومة في تقويض ادعاء عبد الله بتمثيل الفلسطينيين في جامعة الدول العربية وفي الهيئات الدولية. إن هذه الحكومة الجديدة التي كانت في ظاهرها الرحم الذي تولد منه الدولة الفلسطينيَّة المستقلة، تقلّصت منذ لحظة ولادتها، حيث صار دورها البائس هو دور المكوك في الصراع المستمر على السلطة بين القاهرة وعَمَّان[37].

كانت إسرائيل مرتاحة إلىٰ رؤية الشقاق الذي نشأ داخل جامعة الدول العربية، ولكنها بفطنتها أحجمت عن إبداء أي رأي مُعْلَن لمصلحة حكومة عموم فلسطين أَو ضدها. وقبل تشكيل مجلس الدولة المؤقت، في 23 أيلول (سبتمبر) 1948، وصف وزير الخارجية موشي شاريت ما تبقى من فلسطين العربية بأنه «تعبير جغرافي» أكثر مما هو كيان سياسي. كان هناك شخصان مرشحان لحكم هذا الجزء من فلسطين: المفتي والملك عبد الله. قال شاريت كان على إسرائيل، من حيث المبدأ، أن تفضّل قيام حكومة منفصلة في الجزء العربي على اندماج مع شرق الأردن. أما من الناحية العملية، فقد كانت تفضل

(37) آفي شلايم «نشوء وسقوط حكومة عموم فلسطين في غزّة» مجلة دراسات فلسطينية 20/ 1 (1990) 37 ـ 53.

اندماجاً مع شرق الأردن، مع أن موقفها العلني كان موقفاً حيادياً[38]. واستفادت إسرائيل أيضاً، من الناحية العملية، من تجدّد الاتصالات مع عبد الله لكي تحبط إقامة دولة فلسطينيَّة ولتوسيع أرض الدولة اليهودية. وقد اعترف ياكوف شيموني صراحة، وهو نائب رئيس دائرة الشرق الأَوسط في وزارة الخارجية بأن:

«شاريت كان يعلم أنه سبق لنا أن اتفقنا مع عبد الله على أن يأخذ ويضم الجزء العربي من فلسطين، ولم يكن بإمكان شاريت أن يؤيِّد هذه المحاولة المضحكة والعقيمة والقابلة للإجهاض التي يقوم بها المصريون ضد عبد الله. ولم يكن لهذه المحاولة أية علاقة بنا. فقد كانت حركة تكتيكية أقدم عليها أعداء عبد الله لوضع شيء ما أمام الضم الزاحف الذي يبتغيه إيشتاين. في ذلك الحين لم يحدث أي ضم. الضم الرسمي لم يحدث إلاَّ في شهر نيسان (أبريل) 1950، ولكنه كان قد بدأ أخذ الأرض والإعداد لضمّها. ولذلك حاولوا دون جدوى بناء قوة مضادة.

«النقطة الثانية هي أن شاريت ورجالنا كانوا يعرفون ما الذي سهت عنه دولة إسرائيل القوية في السنين الأخيرة. لقد فهم معنى الدبلوماسية وعرف كيف يديرها. وكان شاريت حتماً يدرك أننا في العلن مضطرّون لقبول الدولة الفلسطينيَّة وما كان باستطاعتنا أن نقول إننا معارضون لإقامة هذه الدولة. ففي المقام الأول، كنا قد قبلنا قرار الأُمم المتّحدة المتضمن إقامة دولة فلسطينيَّة عربية. الأمر الثاني إن ذلك كان هو المسار الصحيح والمنصف واللائق وكان من واجبنا أن نوافق عليه. ولأننا كنا تحت السطح، ووراء الستائر، وبجهود دبلوماسية، توصّلنا إلىٰ اتفاق مع عبد الله ـ وهو اتفاق لم يكشف عنه وبقي طي الكتمان آنذاك ـ هو أمر شرعي بالكامل، ولم يكن الكلام عنه مباحاً. وكان

(38) موشي شاريت «بشعارها أموت ـ أي: عند بوابة الأمم ـ 1946 ـ 1949» (تل أبيب، 1958) ص: 307 ـ 9.

شاريت يعلم أن توجهنا الرسمي كان يجب أن يكون لمصلحة دولة فلسطينيَّة إذا تمكّن الفلسطينيون من إنشائها. لم يكن بوسعنا أن ننشئها لهم. أما إذا تمكّنوا هم من إنشائها، فإننا بالتأكيد وحتماً، سنوافق عليها. وكونه قد عقد صفقة في الخفاء مع عبد الله للحيلولة دون إقامة مثل هذه الدولة، فذلك عمل دبلوماسي، ولا غبار عليه. لقد سلك شاريت قواعد الدبلوماسية والعمل السياسي المقبولة في سائر أنحاء العالم»[39].

الحرب ضد مصر

إن المنافسات بين الدول العربية التي أدَّت إلى نشوء ما يسمى «حكومة عموم فلسطين» تسبَّبت في تعقيدات للدبلوماسيَّة الإسرائيلية ولكنها بسّطت استراتيجية إسرائيل. وكان داڤيد بن غوريون، الرجل المسؤول عن الاستراتيجية الكبرى، دائب البحث عن انقسامات وانشقاقات في معسكر العدو يمكن استخدامها لتوسيع مكاسب إسرائيل على الأرض. فانعدام الوحدة بين العرب وفّر لإسرائيل البذخ المتمثِّل في استراتيجيَّة خوض حرب على جبهة واحدة فقط في زمن ما. والجبهة التي اختار بن غوريون أن يجدِّد الحرب فيها كانت الجبهة الجنوبية، ففي مطلع شهر تشرين الأول (أكتوبر) طلب من هيئة الأركان العامة أن تركّز حشد الجانب الأكبر من القوَّات الإسرائيلية في الجنوب والإعداد لهجوم كبير يقتلع الجيش المصري من النقب. ونظراً لتدهور العلاقات بين مصر وعبد الله، رأى أنه ليس أمراً محتملاً أن يتدخّل الجيش الأردني في مثل هذه الحرب[40].

خرق الجيش الإسرائيلي الهدنة في 15 تشرين الأول (أكتوبر) وشنّ عملية «يواڤ» لطرد القوَّات المصرية من النقب. وخلال أسبوع من القتال استولى

(39) مقابلة صحفية مع ياكوف شيموني، 26 آب (أغسطس) 1982 ـ القدس.

(40) بن غوريون «يومان هاملحاماه» المجلد الثالث، الكلام الذي دونه في 7 تشرين الأوَّل (أكتوبر) 1948.

الإسرائيليون على بئر السبع وبيت جبرين، وطوّقوا اللواء المصري (الذي كان من ضمنه البكباشي جمال عبد الناصر) في الفالوجة. وكما توقع بن غوريون، ظل شرق الأردن محايداً في الحرب بين إسرائيل ومصر. لقد كان الجيش الأردني في وضع يسمح له بالتدخّل لمساعدة اللواء المصري المحاصَر في جيب الفالوجة، ولكن بدلاً من ذلك صدر إليه توجيه بالاستيلاء على بيت لحم والخليل اللتين سبق أن احتلهما المصريون. وكان جلياً أن عبد الله وغلوب أسعدتهما رؤية الجيش المصري يهزم ويذل.

إن تشكيل حكومة عموم فلسطين أحيى جيش الجهاد المقدس التابع للمفتي. وهذا الجيش غير النظامي عرّض للخطر سيطرة شرق الأردن على فلسطين العربية. ولذلك قرّرت حكومة شرق الأردن أن تقمع في المهد التحدي الذي يمثّله هذا الجيش لسلطة شرق الأردن. ففي الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) أمر وزير الدفاع بإخضاع جميع التشكيلات المسلَّحة العاملة في المناطق التي تحت سيطرة الجيش الأردني لأوامر هذا الجيش أَو حلها[41]. وقد نفّذ غلوب هذا الأمر فوراً ودون هوادة. وخوفاً من أن يحجم الضبّاط العرب عن أداء مثل هذه المهمة غير الوطنية، أرسل غلوب ضباطاً بريطانيين لتطويق جيش الجهاد المقدس وحلّه بالقوة. أوصلت هذه العمليَّة العربَ إِلىٰ حافّة حرب مدمِّرة لهم جميعاً في وقت كان يفترض فيهم التعاون ضد العدو المشترك. ولكن هذه العمليَّة حيَّدت بصورة فعَّالة القوة العسكرية لخصوم عبد الله الفلسطينيين. وأمام هذه الخلفية، لم يكن الهجوم الإسرائيلي على الجيش المصري أمراً بغيضاً كُلّه. لقد عبَّر غلوب في كلام خاص عن الأمل في «أن يطيح الهجوم اليهودي نهائياً حكومة غزة ويلقن الغجر (هكذا وردت الكلمة في الأصل) درساً!». ففي رسالة إِلىٰ الكولونيل ديزموند غولدي، القائد البريطاني للواء الأول، قال غلوب: «إذا كان اليهود عازمين على خوض حرب

(41) غلوب «جندي مع العرب» ص 192.

خاصة مع المصريين وحكومة غزة، فلسنا في وارد التورط فيها. إن الغجر وحكومة غزة لا يقل عداؤهم لنا عن عداء اليهود»[42].

اتبع الإسرائيليون «حربهم الخاصة» في الجنوب بشن هجوم واسع في الشمال. كانت إسرائيل الآن تلتقط أعداءَها واحداً بعد الآخر. ففي 29 تشرين الأول (أكتوبر)، تكشفت عمليَّة حيرام التي نتج عنها الاستيلاء على الجليل الأوسط وتشريد عدد آخر كبير من العرب. كان «تطهير الجليل» نتيجة سياسة عليا وليس ناتجاً فرعياً للحرب لم يكن مقصوداً. فقد كان الجليل الأوسط يضم عدداً كبيراً من السكّان العرب، من ضمنهم لاجئون من الجليل الغربي والجليل الشرقي. كان بن غوريون قد أبلغ مجلس الوزراء أنّه، في حالة تجدد القتال في الشمال، سيصبح الجليل «نقياً» و«خالياً» من العرب[43]. في ذلك الحين كانت إسرائيل هي التي جدّدت القتال، وكان الجيش الإسرائيلي هو الذي نفذ أعمال الطرد. لقد حشدت أربعة ألوية في الشمال لتنفيذ عمليَّة حيرام. وخلال قتال دام أربعة أيام، أبعد الجيش الإسرائيلي السوريين مسافة أخرى إلىٰ الشرق، وأوقع جيش الإنقاذ العربي الذي يقوده القاوقجي في حركة كمَّاشة وأخرجه من المعركة، وأخرج الجيش اللبناني نهائياً من الجليل. وخلال مطاردة حامية للقوات المتقهقرة اجتاز لواء كارميلي الحدود إلىٰ لبنان واحتل أربع عشرة قرية تم التخلي عنها لاحقاً لدى توقيع اتفاقية الهدنة. وهكذا تحوّل التيار في الجبهة الشمالية أيضاً تحولاً دراماتيكياً ضد العرب ومزعجاً لهم.

الهدنة الثالثة التي أقرّتها الأُمم المتّحدة دخلت حيّز التنفيذ في 31 تشرين الأول (أكتوبر). وفي 22 كانون الأول (ديسمبر) خرقت إسرائيل الهدنة مرة

---

(42) من غلوب إلىٰ غولدي، 16 تشرين الأوَّل (أكتوبر/ 1948). أنا ممتن للكولونيل غولدي الذي أتاح لي الاطلاع على هذه الرسالة.

(43) بني موريس «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين» 1947 ـ 1949 (كامبردج ـ 1987) ص218.

أخرى بشنّها هجوماً ثانياً في الجنوب. كان هدف عمليَّة «هوريف» هو إكمال تدمير القوات المصرية، وإخراجها من فلسطين، وإرغام الحكومة المصرية على التفاوض لتوقيع هدنة. إن الخلاف بين الدول العربية وفقدان التنسيق بين جيوشها في فلسطين أتاح لإسرائيل حرية اختيار زمان الهجوم الثاني ومكانه. وقد توجهت مصر إلىٰ حلفائها العرب بنداء طلباً للمساعدة ولكن نداءاتها لاقت آذاناً صمّاء. وعدت المملكة العربية السعودية، ولبنان، واليمن جميعها بالمساعدة ولكنها عجزت عن الوفاء بوعودها. قصف العراقيون بضع قرى إسرائيلية قريبة من خط الجبهة في عمل رمزي للتضامن مع حليفهم الذي يخوض المعركة. وما من دولة عربية، دون استثناء، إلاَّ كانت خائفة من التدخّل أَو غير راغبة في التدخّل. شقت القوات الإسرائيلية طريقها واخترقت الحدود إلىٰ سيناء حتى أطراف العريش. ونجحت عمليَّة «هوريف» في إرغام مصر، أقوى دولة عربية وأكثرها ادعاء بقيادة الآخرين، على بدء مفاوضات الهدنة مع دولة إسرائيل، وبذلك أوصلت الحرب إلىٰ نهايتها. ففي السابع من كانون الثاني (يناير) 1949، بدأ تنفيذ وقف إطلاق النار بقرار من الأُمم المتّحدة وكان ذلك علامة على النهاية الرسمية للحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى.

الخلاصة

القصد من استعراض استراتيجيَّة إسرائيل وتكتيكاتها في التعامل مع الائتلاف العربي في سنة 1948 ليس التقليل من أهمية انتصار إسرائيل، بل وضعه في سياقه السياسي والعسكري الصحيح. وعندما يتفحص المرء العمل السياسي في الحرب ولا يكتفي بتفحص العلاقات العسكرية فقط، فإن الصورة التي يخرج بها ليست الصورة المألوفة لإسرائيل التي تقف وحيدة ضد القوة المشتركة للعالم العربي كلِّه، بل هي صورة التلاقي الملفت للنظر بين مصالح إسرائيل ومصالح شرق الأردن ضد الأعضاء الآخرين في الائتلاف العربي، وبخاصَّة ضد الفلسطينيين.

ليست غايتي من كتابة هذا العرض إصدار حكم أدبي على سلوك إسرائيل في سنة 1948 أَو نزع الشرعية عن الصهيونية، بل أن أذكر أن الرواية الصهيونية التقليدية لولادة إسرائيل وللحرب العربيَّة ـ الإسرائيليَّة الأولى تحوي عيوباً عميقة. فالرواية الصهيونية، شأنها شأن كل الصيغ ذات الطابع القومي لرواية التاريخ، هي مزيج غريب بين الحقيقة والخيال. وكتابة التاريخ الجديدة كانت ولا تزال موضع استنكار نقّادها بحجة أن الدافع إليها ليس البحث العلمي عن الحقيقة المتعلقة بالماضي وإنما خطة سياسية معادية لإسرائيل. ورغم هذه الانتقادات، وهي بدورها مستوحاة سياسياً، فإن كتابة التاريخ الجديدة هي في جوهرها محاولة رابطة الجأش لاستخدام الوثائق الرسمية لفضح بعض الخرافات التي حدث أن أحاطت بولادة إسرائيل. ثم إنها تقدم منظوراً مختلفاً وطريقة بديلة للنظر إِلىٰ أحداث سنة 1948 الهامة. إن التاريخ هو نهج لإزالة الغموض وكتابة التاريخ الجديدة إنما تساعد على إزالة الغموض عن ولادة إسرائيل، وتقديم صورة أوفى، وأفضل تلويناً وأكثر تعقيداً لما هو دون ريب إحدى أعظم قصص النجاح في القرن العشرين. أما أن يكون النقاش بين التقليدي الموالي للصهيونية من جهة، و«المؤرخين الجدد» من جهة أخرى، شديدة الحرارة إِلىٰ هذا الحد، فليس بالأمر المفاجيء. ذلك أن النقاش حول حرب 1948 ينفذ إِلىٰ صلب صورة إسرائيل ذاتها.